التسامح بين الإسلام والمسيحية عند الشيخ محمد الغزالي
(القسم الأول)

د/ سعيد رحماني*

التسامح كقيمة إنسانية عالمية أمر تهفو إليه نفوس الحكماء والعلماء في كل الملل والنحل، وكفكرة نظرية جميلة ومجردة؛ لم تخل منه أدبيات كل الثقافات والفلسفات، بل والديانات السماوية وحتى الوضعية.

ولكن قد تكون الفكرة من الناحية النظرية المجردة موجودة واضحة، ومطلوبة لدى الجميع، ومن اليسير أن نتحدث عن الفكرة ونتفلسف في صياغة مفاهيمها النظرية المجردة، ونعدد مزاياها المتعددة، ولكن البون ساشع بين التنظير والتطبيق، بل الصعوبة كل الصعوبة في أن نجسد الفكرة وننقلها من مستوى التنظير إلى مستوى الفعل والتطبيق.

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن من أكثر الأفكار رواجا من حيث التنظير، ومن حيث التفكير المجرد في الفكر الإنساني (فكرة التسامح)، لكنها في الواقع وفي التطبيق من أكثرها غيابا. وكل من المسلمين والمسيحيين يدّعي أنه أكثر تسامحا من الآخر، وينسب إلى خصمه أو عدوه، أو الطرف الآخر عدم التسامح. وهذا في الحقيقة هو الإشكال الكبير الذي يواجه فكرة التسامح في العالم.

* أستاذ بكلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر.

وهذا هو السبب الذي أثار انتباهنا إلى العناية بدراسة قضية التسامح بين المسيحية والإسلام من منظور أحد الشخصيات الإسلامية المعاصرة، التي سجلت حضورها العلمي والفكري المتميز في العالم الإسلامي، ألا وهو أستاذنا الكاتب المرموق والداعية الألمعي الذكي، العالم الأزهري (الشيخ محمد الغزالي)رحمة الله عليه، وذلك من خلال كتابه المتميز (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام).

وستعالج هذه الورقة التي نقدمها المحاور التالية :

المحور الأول ويتناول ما يلي :

- مفهوم السماحة والتأسيس القرآني لها.
- التعريف بالشيخ الغزالي، وبكتابه.

المحور الثاني ويتناول ما يلي:

- الإسلام بين عدوّيه العصبية والتعصب.
- المسلمون وأهل الذمة.
- أسلوب المعاملة بين الديانتين.
- هل أضرّت بالمسلمين سماحتهم.

هذه هي أهم المحاور التي نود الوقوف عندها لبيان التسامح بين الإسلام والمسيحية.

مفهوم السماحة :

السماحة قيمة عالية من قيم الإسلام التي تضمنتها نصوصه من كتاب وسنة، وقد تجسد التسامح في واقع المسلمين حتى غدا أهم ما يميزهم عن غيرهم، فما هو التسامح ؟

تناول الكثير من العلماء والباحثين السماحة والتسامح في كتبهم ومؤلفاتهم، فعرفوها وشرحوها، وفيما يلي بعض ما جاء في تعريف السماحة :

يقول الطاهر ابن عاشور في تعريف السماحة: "السماحة هي سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادة، فهي وسط بين الشدة والتساهل، ولفظ السماحة هو أرشق لفظ يدل على هذا المعنى"[1].

ويقول في بيانها أيضا الدكتور محمد عمارة:"السماحة تعني المساهلة واللين في المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما انتظار ولا مقابل، أو حاجة إلى جزاء.."[2]. فالسماحة تدل على خلق البذل والجود، وهي أكمل وصف لاطمئنان النفس وأعون على قبول الهدى والإرشاد، كما يقول ابن عاشور.[3]

والسماحة في النسق الإسلامي ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغة نظرية تأملية ومجردة،كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية،يمنحها حاكم ويمنعها آخر. وإنما هي أكبر من ذلك بكثير في مفهوم الإسلام، إنها كما يقول محمد عمارة: "إنها دين مقدس، ووحي إلهي..وبيان نبوي لهذا الوحي الإلهي.. وتجسيد وتطبيق لهذا الدين في دولة النبوة..."[4]

وقد حافظ الإسلام على استدامة السماحة لأحكامه، كما دعا إلى المحافظة عليها في تاريخه وفي معاملة أتباعه للناس، بغية أن تكون ثمرة للدين الخالد والشريعة الخاتمة،وأن تظل منهاجا للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

1. ابن عاشور: *أصول النظام الاجتماعي في الإسلام*، ص 22. 23.
2. د. محمد عمارة: *السماحة الإسلامية*، مصر، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط 1، 2005م، ص 9.
3. انظر : ابن عاشور: نفسه، ص 24.
4. محمد عمارة : نفسه، ص 9.

التأسيس القرآني للسماحة :

لقد بدا القرآن الكريم فأسس للسماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود.

ففي هذا الوجود هناك (حق) هو الله سبحانه وتعالى، وخلق يجمع جميع عوالم المخلوقات.

وانطلاقا من هذا التصور الفلسفي الإسلامي للوجود تكون الواحدية والأحدية لله سبحانه وتعالى وحده فقط، بينما تقوم كل عوالم الخلق الأخرى (النباتية والمادية والحيوانية والإنسانية.. والفكرية) على التعدد والتنوع والتمايز، والاختلاف، باعتبار هذا التنوع والتمايز والتعدد قانونا إلهيا تكوينيا، وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.[1]

وعند ما تغدو السماحة بهذا المفهوم الفلسفي العميق الذي أرادته المذهبية الإسلامية، فإن النتيجة الحتمية لذلك هي "أن يتعايش جميع الفرقاء المتخالفين، ويتعارف جميع عوالم الخلق، ويسود خلق التسامح في العلاقات بين الشعوب، والثقافات والحضارات، والمذاهب، والفلسفات، والشرائع والملل والديانات والأجناس والألوان واللغات والقوميات.." هذه هي السماحة التي أسس لها القرآن في آياته التي منها :

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات، الآية 13) .

---

1. محمد عمارة: نفسه، ص 11.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم، الآية 22).

وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة، 48). وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود، الآية 118 – 119).

وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التي هي علة الوجود، وسر التسابق في عمران هذا الكون. وفي التأسيس القرآني لمبدإ السماحة الذي يقوم على التنوع والتعددية والاختلاف، يأمر أتباعه بالعدل- الذي هو معيار النظرة القرآنية، وروح الحضارة الإسلامية- ويطالبهم بتجسيده على مستويات متعددة هي:

على مستوى النفس، فيأمر بالعدل معها، فيقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء، الآية 97).

على مستوى العدل مع الآخر، يقول: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ (الشورى، الآية 15). ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ (النساء، الآية 135).

وبالنسبة لهذا الآخر يأمر الإسلام بالعدل معه ولو كنا نكرهه، فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (المائدة، الآية 8).

ويأمرنا بالعدل معه ولو كان معتديا علينا، فيقول: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ (البقرة، الآية 194). بل ويفضل الصبر والعفو على القصاص العادل، فيقول: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾. (النحل، الآية 126-128).

بل ويوجب الإسلام العدل مع المخالفين في العقيدة، والتمييز بين مواقفهم، فيقول: ﴿**مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ**﴾ (آل عمران، الآية 113). ويقول: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (آل عمران، الآية 199). وقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ (آل عمران، الآية 75). بهذه النظرة التي تقوم على عدم التسوية بين الفرقاء يقيم الإسلام مبدأ السماحة ويؤسس له هنا كما أسس له فيما سبق الحديث عنه.

وبهذا يأتي التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية قائما على الرؤية الفلسفية للكون والوجود المحكومة بالتعدد والتنوع والتمايز والاختلاف، ليكون قانونا تكوينيا أزليا أبديا، فتتحول السماحة

إلى ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملا ومرعيا في عوالم المخلوقات والفلسفات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات [1].

نبذة عن الشيخ الغزالي وفكره :

ولد الشيخ الغزالي محمد الغزالي في 30 محرم 1341هـ الموافق لـ22 سبتمبر 1917م، بقرية نكلة العنب بمحافظة البحيرة بمصر.

تلقى تعليمه الأولي والثانوي في معهد الإسكندرية الديني، حفظ القرآن مبكرا، التحق بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر سنة 1937م.

تلقى العلم على يد علماء كبار في الأزهر الشريف كالشيخ عبد العظيم الزرقاني، والشيخ محمود شلتوت والدكتور محمد يوسف موسى، والشيخ محمد غلاب.

كما أخذ من مدرسة فكرية عريقة هي مدرسة عبده والمنار، كما تأثر بالمصلح الكبير الإمام حسن البنا.

المناصب التي تقلدها :

ترقى الغزالي في مناصب عديدة، فعين مستشارا في المساجد، ثم واعظا في الأزهر ثم وكيلا لقسم المساجد ومديرا للمساجد، ومديرا للتدريس، وفي عام 1971 عين مديرا عاما للدعوة والإرشاد، ووكيلا لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية بمصر.

التدريس الجامعي :

أعير الشيخ الغزالي ليكون أستاذا بجامعة أم القرى بمكة 1977.

كما عمل أستاذا بجامعة قطر وبجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، بقسنطينة بالجزائر، وعين رئيسا للمجلس العلمي بها، كما ترأس المجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

1. انظر : عمارة : نفسه، ص 16.

رحلاته العلمية :

زار العلامة الشيخ الغزالي الكثير من الأقطار العربية الإسلامية وبلدان العالم الأخرى، وشارك في مؤتمرات عالمية كثيرة، حول قضايا الثقافة وحوار الأديان والثقافات، ومشكلات العالم الإسلامي المعاصر.

ألف كتبا كثيرة في شتى مجالات الثقافة الإسلامية، طبعت في بلاد عربية وإسلامية.

نال الاحترام والتقدير الكبيرين لدى الجماهير المسلمة، ولدى المثقفين على مختلف أطيافهم، كما نال التقدير والاحترام لدى كثير من الساسة والزعماء في العالمين العربي والإسلامي.

كان واسع الثقافة كثير الإطلاع على ثقافات العالم، وقضايا التاريخ والحضارة يتميز بالذكاء والجرأة والشجاعة، ويحمل فكرا إسلاميا أصيلا، ومتميزا في طرحه، ومعالجته لمشكلات العالم الإسلامي، وأسباب تخلفه. لا يخاف المواجهة الفكرية والمناظرة العلمية مع خصوم الإسلام من العلمانيين واليساريين، عالي الثقة بالنفس، وبما عنده من الموروث الثقافي والديني.

ومن أشهر مقولاته :

- الإسلام قضيته عادلة يتولى الدفاع عنها محام فاشل.
- الحضارة الغربية باقية لن تزول حتى يأتي خصومها بالبديل.
- سئل ذات مرة (هل نحن مسيرون أم مخيرون)، فقال هم في الغرب مخيرون ونحن في الشرق مسيرون.
- قال عن التيار السلفي لا سلف ولا خلف بل هم حنابلة يكذبون.

لم يتوقف عن العطاء الفكري إلى أن توفاه الله سنة 1996م أثناء مشاركته في ندوة فكرية بالرياض ودفن بمقبرة البقيع بالمدينة المنورة[1].

1. *إسلامية المعرفة*، العدد 7، السنة 2، 1997 م.

خصاله :

يقول د.طه جابر العلواني، حين يُذكر الشيخ الغزالي يتبادر إلى الأذهان جملة خصال قلّ أن تتوافر كلها، أو تجتمع بجملتها في عالم معاصر، ومن هذه الخصال الحميد:

1. الاجتهاد القائم على سعة الإسلام ومرونته ومقاصد شريعته وكليات مصادره، وغاياته العليا.

2. السماحة والاعتدال اللذان ينبهان بوضوح إلى الفهم الدقيق لوسطية الإسلام، والإدراك العميق لقيمه العليا (التوحيد– العمران– التزكية) والفقه المستفيض في معيار الإسلام الأساس (العدل) الذي منه انبثق الاعتدال، واشتقت الوسطية.

3. الغيرة الصادقة على الأمة التي انتمى إليها بعقله وقلبه ووجدانه فضلا عن دمه وجسده، غيرة صادقة على دينها وأرضها وعرضها وأبنائها وماضيها وتاريخها وحاضرها ومستقبلها ووحدتها.

4. القدرة النقدية والطاقة العقلية، والمعرفة المتنوعة الواسعة، والذكاء الخارق اللماح، والطاقة المتجددة المتطلعة ـ على الدوام ـ إلى معرفة الجديد والمزيد في كل ما من شأنه أن يخدم هذه الأمة وقضاياها المتشعبة.

5. الحب والوفاء لربه ولنبيه ودينه وأمته، ورفاقه وتلامذته، يساعده على ذلك قلب كبير نقي من الغل والحقد والحسد والبغضاء والكراهية، خالص الإيمان والحب والوفاء[1].

---

1. انظر طه جابر العلواني : *الغزالي وصفحات من حياته*، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 7، السنة 2، 1997، ص 5.

التعصب والتسامح بين الديانتين :

كتب الشيخ محمد الغزالي كتابه المتميز في عنوانه ومضمونه (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) ليبين حقيقة التسامح والتعصب بين الديانتين، ويكشف عن موقف الإسلام المتميز في هذا الموضوع الخطير.

فلماذا كتب الكتاب ؟ وما هي القضايا التي تعرض لها ؟

أولا: لماذا كتب الشيخ محمد الغزالي كتابه التعصب والتسامح :

لقد كان الدافع الذي دعا الكاتب إلى تأليف كتابه (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) هو ما قام به أحد الكتاب الغربيين، فقد أمسك كاتب مسيحي قلمه، وبدلا من تبرئة دينه من تهم ارتكبها آباؤه وغيرها... دار يطعن في مسلك الإسلام مع أهل الكتاب، ويذم تاريخ المسلمين في معاملتهم مستشهدا بمؤرخي أوروبا المتعصبين للأهواء، ومؤوّلا الحقائق ومزورا في التاريخ.

وانتشر خبر هذا الكاتب ووصلت أصداء كتابه إلى الشرق، وإلى مسامع أهل الغيرة على الإسلام، فَطُلِبَ إلى الشيخ العلامة محمد الغزالي أن يرد على تلك المزاعم ويبين حقيقة الأمر، فجاء رد الكاتب بهذا الكتاب الذي أسماه (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام).

وفي الكتاب يعقد الشيخ مقارنة رائعة بين تعاليم الإسلام وتعاليم المسيحية، ويبين مواقف المسلمين ومواقف المسيحيين والنصارى من المخالفين، ويتبع ذلك بصور من التاريخ والدساتير في معاملة المخالفين للرأي والدين على مر العصور، فكان في ذلك الجواب الشافي والرد الكافي على من يشكك في سماحة الإسلام وتسامح المسلمين.

ثانيا :طبيعة الكتاب كما يبينه الغزالي :

لقد بين الشيخ الغزالي طبيعة كتابه، وأنه إنما ألفه مضطرا لبيان الحقائق وكشف الافتراءات ودحض الأباطيل، فقال:" هذا بحث استكرهني أعداء الإسلام على خوضه، وهم لم يحسنوا إلى أنفسهم إذ فتحوا هذا الباب، كما ظنوا- ولا أساءوا إلى الإسلام -كما أحبوا ويبين الشيخ أن المسألة لا تعدوا أن أحمقا غرته الأماني فجاء يناوش القلاع الشم، فأصابته قذيفة أودت به ودمرت عليه مكمنه، وأن هذا الرد إنما بسبب استفزاز ذلك الرجل للمسلمين واعتباره الإسلام خطرا على البشرية.

والإسلام في الحقيقة لا يمثل خطرا على العالم كما يزعم ذلك الزاعم فهو كما يبين الغزالي ليس خطرا على أمة بعينها أو جنس بذاته، وإنما هو خطر داهم الإذلال والتّعصب والختل[1] .

ثالثا :منهج الكاتب :

يبين الكاتب طبيعة عمله ومنهجه فيقول:" ليس في هذا أكثر من سوق الحقائق مجردة عن أهواء المغرضين، وأكاذيب المدلسين" فهو يسوق الحقائق العلمية والتاريخية ويرد على الافتراءات والأباطيل، كما يقول أيضا: ولا يحسبن القارئ أني في هذا الكتاب- ضخمت شبها ثم هدمتها، أو عنيت بحملات تافهة ثم رددتها. لا لقد أبصرت طلائع هجوم منظم على الإسلام، وكبر متين لأمته فأحببت أن أسحق الطليعة الجريئة حتى أشرد من خلفها.. "[2] .

أما عن طبيعة البحث فيقول: لقد كتبت هذا البحث وأنا مسلم أحترم ديني وأتمسك به، ولم يكن اعتناقي للإسلام حجابا عن تلمس الحقيقة في مظانها، والتقاطها حيث وجدتها.

---

1. انظر: محمد الغزالي، *التعصب والتسامح*، ص 3.
2. الغزالي: نفسه، ص 4.

ولست أعرف ما يكون وقعه عند أصحاب الأديان الأخرى، لكني أعلن أني أتلقى بقبول حسن كل نقد علمي يعتمد على الحق وحده، كما أعلن أني- وكثيرا من إخواني المسلمين- ما اعتدينا، بل رددنا العدوان، وما تحدثنا حتى حملنا غيرنا على الكلام وربما كانت الحقائق مرة في بعض الحلوق"[1]. وبهذا يتبين لنا أن طبيعة البحث دفاعية خالصة، جاءت نتيجة العدوان الذي انطلق من هناك، وليست حملة على المسيحية لتشويهها والافتراء عليها.

طبيعة الإسلام وخاصيته :

بدأ الكاتب بحثه ببيان مسألة مهمة هي طبيعة الإسلام كدين سماوي أنزله الله تعالى على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، وهي مسألة قلما يلتفت إليها كثير من الناس؛ هي ابتعاده عن الأحقاد الطائفية، ومحاربته للعصبية البغيضة المقيتة، فيقول: إن الأحقاد الطائفية، والحروب الدينية غريبة عن أرض الإسلام، فقد ألف هذا الدين منذ بدأ أن يعاشر غيره على المباشرة واللطف، وأن يرعى حسن الجوار فيما يشرع من قوانين ويضع من تقاليد وهو في ميدان الحياة العامة، حريص على احترام شخصية المخالف له، ومن ثم لم يفرض عليه حكمه أو يقهره على الخضوع لشرائعه، بل ترك أهل الأديان وما يدينون"[2].

ولكشف بعض ما يتميز به الإسلام في هذا الجانب، والتأكيد عليه يسوق أمثلة من المسائل الواردة في أمهات كتب الفقه لدى مختلف المذاهب الفقهية فيقول "خذ مثلا الخمر والخنزير، إنهما بالنسبة للمسلم - لا يعدان مالا له قيمة، بل الحكم بحرمتهما ورجسهما معروف.

1. الغزالي: نفسه، ص 5.
2. نفسه، ص 5.

ومع ذلك فالمذاهب ترى أنهما بالنسبة إلى النصارى مال متقوم يصح تملكه وتمليكه، ومن ثم تعترف بالتعامل فيهما.

وانظر إلى ما يقوله أئمة الفقه الإسلامي في كتابي (البدائع، والمغني) إن أنكحة غير المسلمين لها أحكام الصحة، لم ؟ لأنا قد أمرنا بتركهم وما يدينون.

وبلغ من احترام الحرية الدينية عند المسلمين أن يقبلوا زواج المجوسي من ابنته ما دامت شريعته تبيح له ذلك، ففي المغني، مجوسي تزوج ابنته فأولدها بنتا، ثم مات عنها فلهما الثلثان".

إن الإسلام كما يقول المؤلف لم يقم البتة على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم وتاريخ الإسلام في هذا أنصع تاريخ على وجه الأرض"[1].

وسيبقى مسلك هذا الدين مثلا أعلى لأروع ضروب التسامح والاعتدال مهما اجتهد المرجفون ونفثوا في أفقه الدخان، هذا هو طبع الإسلام وهذه هي طبيعته منذ بداية دعوته في مكة والمدينة.

الإسلام والتعصب والتسامح :

بعد أن مهد المؤلف بما سبق ذكره من بيان خلفية الكتاب والمنهج الذي سلكه، والمنطلق الذي يتوكأ عليه، ينتقل بنا إلى بحث الموضوع من أوجه كثيرة، منها ما يلي:

موقف الإسلام من العصبية والتعصب :

– الإسلام بين عدويه العصبية والتعصب :

يبدأ الشيخ الغزالي في كتابه بمسألة في غاية الأهمية، وتعبر عن منهجية علمية دقيقة تنطلق من مقدمات أساسية واضحة،

---

1. نفسه، ص 5.

هذه المسألة هي بيان موقف الإسلام من العصبية والتعصب. ويعتبر العلامة محمد الغزالي أن التعصب والعصبية عدوان للإسلام.

إن العصبيات السائدة في الفكر والتاريخ، والتي تدعي أن جنسا أفضل من آخر، وأن عرقا أشرف من عرق، تدعي أن هناك جنسا مختارا هو الجنس الأبيض الذي يطلب من غيره من الأجناس أن يتنحّى ويفسح الطريق أمامه.

"إن هذه العصبيات لا يعنيها شيء من العقل ومنطقه، إن الذي يعنيها هو ما تحققه من منافع، أما موقف الدين من العصبيات، فهو الرفض التام لها" فهي في نظر الدين حماقة كبرى، والاعتراف بها هدم للأركان الأولى من الرسالات التي أنزل الله للعالمين.

إن قوام هذه الرسالات أن الإنسان مسئول بنفسه عن نفسه، يقدمه ما اكتسب من خير فحسب، ويؤخره ما اكتسب من شر فحسب، ولا مكان في هذا الميزان القسط لتدخل بشر، كبير أو حقير، ولا حساب في تقويم شخص ما لوطنه أو نسبه، ولا اعتبار البتة لما تواضع عليه الناس من شارات الرفعة والخسة، ابن النبي وابن البغي سيان.

إن تأخر الأول في سياق الصالحات لم ينفعه حسبه، وإن تقدم الأخير لم يضره نسبه، وقد أوضح الله هذه المبادئ لا في قرآن محمد فحسب؛ بل في كتب الأنبياء الأولين كذلك : ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى**﴾ (النجم، 36–41). وتلك قاعدة تميلها العدالة[1] بهذه العبارات يبين الغزالي أن الإسلام يعادي العصبية ويرفضها.

---

1. الغزالي، نفسه، ص 10.

إن العصبية في الإسلام من بقايا التخلف، ومن مظاهر الجاهلية التي يجب تركها في بطون الكتب وفي سجل التاريخ؛ لأن الإسلام يمقت العصبية، ويكرهها ويرفضها، لقد عبر عن هذا المقت والرفض حين قال: يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا، ولأسرته: لا يأتيني الناس بأعمالكم وتأتوني بأنسابكم".

ولقد اغتاظ نبي الإسلام أشد الاغتياظ من النزعة الجاهلية السخيفة، فقال: لينتهين أقوام عن الفخر بأنسابهم الذين ماتوا إنما هم حطب جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجُعل الذي يدهده الخرء بأنفه...إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها الآباء"[1]. بسوق هذه الجمل وهذه النصوص بين الغزالي بوضوح أن الإسلام يقف ضد العصبية والتعصب كما أسلفنا القول.

وإذا كان الإسلام قد وقف هذا الموقف من التعصب والعصبية فإنه بذلك قد حسم الأمر في مسألة التسامح ووضع الأسس المثبتة له. فما هي مظاهر هذا التسامح ؟ وما هو مسلك الغزالي في بيانها ؟

(يتبع)

1. الغزالي، نفسه، ص 16.